المبحث الثالث

• مراجعة المسيحية •

في هذا المبحث القصير (ست صفحات تقريبًا) يناقش المؤلف موضوعًا واحدًا، هو عقيدة الإيمان المسيحي في عيسى عليه السلام، وما دار حولها في العصر الحديث من جدل، ثم يرتب على نتيجة اختلاف رجال اللاهوت الكنسي حول الاعتقاد الموروث في المسيح عليه السلام خطوة سوف يخطوها الإسلام في الغرب، لم يخطها حتى الآن، ولكن الأمل في إمكانها في المستقبل القريب وارد.

عرض المؤلف مشكلة الإيمان المسيحي من أول حدوثها في مؤتمر نيقية الذي عُقد بناءً على دعوة الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول عام ٣٢٥ الميلادي، وكان هذا الإمبراطور وثنيًا حين دعا إلى عقد هذا المؤتمر، وأعد القرار الذي اتخذه المؤتمر قبل انعقاده، وحمل القساوسة على الموافقة عليه بهذه الصيغة «عيسى المسيح ابن الله ؟! هو الله نفسه ؟! ليس مخلوقًا، ولكن محدثًا بواسطة الأب الإله ؟! ومن نفس جوهر الإله ؟!» .

يعني أن مؤتمر نيقية هذا رفع درجة المسيح من رسول بشرى - كسائر الرسل الذين بعثهم الله - إلى درجة إله ؟!

وهذا أكبر حدث بدعي أصاب رسالة المسيح عليه السلام، تضمن عقيدة التثليث المعروفة في الإيمان المسيحي.

ويشير المؤلف إلى أن أكثرية المسيحيين حينذاك كانوا من أتباع الأسقف آريوس في الإسكندرية، الذين كانوا يرفضون أن يكون عيسى - عليه السلام - من جوهر الله، بل هو بشر اختاره الله رسولاً .

وبعد القرار الذي اتخذه مؤتمر نيقية اعتُبر كل من يؤمن بغير ما قرره المؤتمر كافرًا ، ومن ثم يجب اضطهادهم وحرمانهم من جنة النعيم ! .

وترتب على هذا القرار المنافي للعقل والنقل أن واصل رجال اللاهوت اجتهاداتهم لشرح هذه العقيدة ، والتوفيق بينها وبين النصوص الإنجيلية والعقل، وظلت اجتهاداته تتعرض للفشل دائمًا [ص ٢٠] .

وفي هذه الأثناء يسوق المؤلف طائفة من الآيات القرآنية التي تعرض حقيقة المسيح ورسالته ، مشيرًا إلى أن هذه الآيات هي التي عصمت المسلمين من الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها الذين آمنوا بما اتخذه مجمع نيقية من جعل المسيح ابن الله ، أو هو الله نفسه .

ومن تلك الآيات التي ذكرها المؤلف ما يأتي :

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران : ٤٩] .

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ [المؤمنون : ٩١] .

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ [المائدة : ٧٣].

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ [المائدة : ١٧] .

ثم قال: «حتى أولئك الذين يطلق عليهم مسلمون «مودرن»، أو مستغربون، أو مسلمون بالميلاد، لم يخرجوا عن المفهوم القرآنيّ لعيسى» [ص ٢٠] .

وهذا ما سبق أن أشار إليه المؤلف، من أن كثيرًا من دارسي الإسلام من الغرب لاحظوا أن المسلمين يتشددون في عقيدة التوحيد، حتى في أشد عصورهم ضعفًا .

والسبب في هذا وضوح هذه العقيدة في الإسلام، ومسايرتها للفطرة والعقل .

ثم قال : « لاح في المائتي سنة الماضية في العالم المسيحي تعذر الاستمرار في قول : اتخاذ الله ولدًا » [ص ٢١] .

يشير المؤلف بهذه العبارة إلى أن الشروح والمبررات التي كان يقوم بها رجال اللاهوت الكنسي من الكاثوليك والبروتستانت لإقناع الشعوب المسيحية بصحة عقيدة التثليث ، وكون المسيح ابن الله ، أو هو الله ، أصبح من العسير الآن الاستمرار فيها ؛ لأنها لم تعد مقنعة لأحد ، حتى وإن تابع ظاهراً لم تطمئن نفسه باطنًا .

ويرى المؤلف أن رفض تلك الشروح والتبريرات ترتب عليه خلل جسيم في عقيدة الكنيسة في عيسى .

وقد انتشر الإلحاد ، واللاأدرية ، وهجران الكنيسة ، وتحول الناس إلى مذاهب شتى في الاعتقاد والسلوك [ص٢١].

ويقول: إن تبريرات جديدة حدثت خلال المائتي سنة الماضية، وقد أشار إلى ثلاثة منها نكتفي نحن بالأول والثاني فحسب :

الأول : فمن قائل بأن عيسى ليس شخصية تاريخية، بل هو أسطورة.

وقد ذكر هذا القول من قبل صاحب قصة الحضارة (وول ديورانت) وعزاه إلى بعض المفكرين الغربيين ؟! ، وهذا شطط غير مقبول .

الثاني : كان عيسى إنسانًا كاملاً ، اختاره الله وألهمه ، ولكن ليس من نفس جوهر الله ، ولم يقم من قبره .

وعزا الدكتور هوفمان هذا القول في الهامش إلى جيرد لودمان في كتابه « قيام المسيح » الذي صدر عام ١٩٩٤م [ص٢٣] .

وهنا يدلف المؤلف إلى بيان علاقة الإسلام بالمسيحية في ضوء هذه المتغيرات ، التي تلوح في الأفق الآن لدى نقاد عقيدة الكنيسة في المسيح عليه السلام فيقول :

«تأخذ هذه العمليات التصحيحية بالأنفاس ، ولأول مرة منذ ١٤٠٠ سنة قمرية ، تلوح فرصة حقيقية لأن تتطابق التعاليم المسيحية ، والصورة القرآنية للمسيح » [ص٢٤] .

بنى المؤلف هذا الفهم على القول الثاني الذي ذكرناه آنفًا ، وقد أبدى عليه تحفظًا ، وهو حصر الكمال الإنسانيّ في عيسى وحده عليه السلام ، وعيسى مثله مثل رسل الله جميعًا في الكمال والفضل .

ثم قال : «إذا تحقق هذا يكون الإسلام قد أكمل مهمته في هذا الميدان، ويبزغ الأمل في حوار مسيحي ، يهودي ، إسلامي ، ولأول مرة في مجال العقيدة ، بعد أن كان محصوراً في مجال الأعمال الاجتماعية . . وكنتيجة لذلك فقد يقبل المسيحيون في النهاية القرآن على أنه كتاب إلهي موحى به ،ومحمداً كمبلغ للكتاب». [ص٢٤] .

• تعقيب:

نحن مع الدكتور هوفمان في ملاحظته التي أبداها على القول الثاني القريب فعلاً من التصوير القرآني لحقيقة المسيح ، فعيسى كما قال المؤلف إنسان كامل، وليس هو - وحده - الإنسان الكامل . وكماله هو كمال الرسل لا كمال عامة المؤمنين .

وقد فات المؤلف استدراك آخر على القول الثاني ؛ لأنه قد خلا من بيان موقفه من الصلب . ولم ندر هل القائلون به يرون أن المسيح نفسه هو الذي صلب؟ أم أن الصلب وقع على شخص شبيه به كما ورد في القرآن.

فإن كان الأول فالفجوة واسعة بين حقيقة المسيح في القرآن ، وبين هذا القول ، وإن كان الثاني فقد زالت تلك الهوة .

وحدوث الجدل حول عقيدة الكنيسة في المسيح عليه السلام ، لم يظهر في المائتي سنة الأخيرتين كما قال المؤلف ، بل قبل ذلك بزمن طويل، وبخاصة في عصر الإصلاح الديني المعروف في القرون الوسطى .

وقد حمل عبئه مارتن لوثر زعيم ذلك الإصلاح، ثم كلفن من بعده.

وقد حكى صاحب قصة الحضارة (وول ديورانت) عن مارتن لوثر قوله : «الكتاب المقدس والعقل لا يتفقان . فإما أن نؤمن بالكتاب المقدس ونكفر بالعقل ؟ وإما أن نكفر بالعقل ونؤمن بالكتاب المقدس »! .

كانت هذه المقولة نتيجة للتصورات الكثيرة ، التي وردت في الكتاب المقدس مخالفة للعقل مخالفة صارخة ، وحملت بعض الفلاسفة الغربيين على وضع نقود واسعة لمحتويات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .

نقود عقلية ، ونقود علمية لاذعة ، حتى أن وول ديورانت نفسه يروي عن فلونير الفيلسوف الساخر قوله تعليقًا على اعتقاد الكنيسة في مركزية الأرض للكون : «يبدو أن الله في الكتاب المقدس كان ضعيفًا في الجغرافية»!!، ذكر ديورانت هذه المقولة في كتابه « قصة الفلسفة » .

ومن رجال الكهنوت المسيحي من حاول أن يثبت تلك الأمور المخالفة للعقل بقوله : إن حقائق الإيمان منحة من الله ، ولا يجوز إخضاعها لحكم العقل ، وقد عزا بعضهم هذا القول إلى مارتن لوثر نفسه كاستدراك على مقولته السابقة .

• • •